

ليلة الذكرى

أفصحة مصرية

بقلم الأديب محمد محمود الليثي

والهذاء الأنيق اللطخ بوحل الطريق

— أعندك غرفة خالية ؟

— نعم ياسيدي ... عشرون قرشاً

الليلة ... هل لك في ملء تلك البيانات

من فضلك ؟ ... إنها أوامر البوليس

كما تعلم ...

فجرت يد الرجل في عصبية تملأ

فراغ الدفتر الضخم ... إبراهيم كامل ...

اثنان وثلاثون سنة ... جراح ... ثم ألقى بالنقود

على الحوان وتبع اليوناني صاعداً السلم الضيق إلى

غرفة بالدور الأول ، كان كل أناسها عبارة عن سرير

خشبى تغطيه ملاءة قذرة ، وكرسی ، وحالة يملوها

طست صنير ووعاء ماء بجانب نافذة بدون ستائر

لم ير الرجل شيئاً من هذا كله ، مل ألقى بنفسه

على الفراش بكامل ملابسه في حالة يرثى لها من التعب

والقنوط ، ثم أغلق عينيه وتذكر مديحة ... مديحة

المعبودة ...

كانت تلك ليلة الذكرى الثانية ، ففي مثلها ،

منذ سنتين ، كان ذاهباً إلى عيادته ، وأطلت زوجته

ورفيقة صباه مديحة من النافذة لتودعه ، كما دأبها

في كل صباح ؛ ففقدت توازنها ، وتلقفها الغضاء ...

وتمثل له المنظر الرهيب عندما احتضن جنبها المهنمة

في يأس وجنون ، كما ظل يتمثل له في كل ليلة من

الليالي التي تلت ذلك اليوم المشؤم !

كانت ليالي ساهدة ، عبارة عن عذاب مقيم ،

تمر عليه الساعة تلو الساعة ، وهو يتقلب في فراشه

من ركن إلى ركن ، ولكن عبثاً كان يحاول النوم

حتى لجأ أخيراً إلى المخدرات علماً بتمطيه من آن لآخر

هذنة قصيرة يغيب فيها عن كل ما حوله ، ولم يلبث

توقف برهة عند مدخل الميدان ، ثم نظر حوله

محاولاً أن يعرف أين وصل ... كان قد ضرب على

غير هدى لساعات طويلة ، حتى قادته قدماء إلى ذلك

الحى الناب ... ولمه قد وصل إلى إحدى الضواحي

دون أن يدري ...

وفي جوف الليل البهيم ، انبعث صوت المؤذن

من جامع قريب يدعو إلى صلاة الفجر فغمغم لنفسه

في ذهول :

— ها قد قارب الليل الانتهاء ...

ثم أخرج ساعته من جيبه بحركة آلية ، ولكنه

نسى أن ينظر إليها ... ماذا يفعل الآن ... أين يذهب ؟

كانت السماء تمطر منذ ساعة رذاذاً قارساً تدفقه

الريح بشدة إلى وجه ذلك الشارد . فشمّر بجسمه

يرتجف برداً ، فرفع بنية مطفئه ، ثم استأنف سيره

المضطرب المتمتر ، إذ أنه كان قد سار طول الليل ،

فكانت ساقاه التعبتان تحتدلانه

وفي نهاية الشارع لمح لوحة ... « بنسيون

دى روز » ... فدفع الباب ، ودخل يتروخ

فخص صاحب (البنسيون) اليوناني بركن عينيه

ذلك النازل المريب ولم تفته ملاحظة التقاطيع الشابة

القوية رغم الشيب الذى علا عارضيه ، والملابس

السوداء المتقنة التفصيل برغم الطر الذى بللها ،

الإسكندرية بتأمل مياه البحر اللانهائية ، وشرب من ينابيع جبل لبنان الثلجية ، وانزلق فوق ثلوج سويسرا ، واندمج في حياة باريس ولندن الصاخبة ، ولكن السأم والذكريات المعضة لم ترح ذاك كره المذبذبة ، ومنظر الجنة الدامية بين ذراعيه يتراءى له في كل لحظة فيمحو ما عداها من المناظر ...

وأخيراً ، لجأ إلى الوحدة ، وقبع في عقر داره ، رافضاً أن يزور أو يزار ، مستلقياً على أحد المقاعد ، يفكر في صمت ، ويدخن بدون انقطاع ... وكان بمبو هو الوحيد المسموح له بزيارته ، فكان يحاول عبثاً أن يرفه عن نفسه أو أن ييمت في روحه المضناة شيئاً من المزاء ، كما كان يحدث له أحياناً أن يخرج إلى الطريق ، عند هبوط الليل فيذر ع الأرصفة على غير هدى ، نهية لأفكاره السوداء ...

لم يمد يقاوم ... ولم يمد يحاول أن يجد حلاً لمشكلة حياته المخطمة ... بل أخذت فكرة الانتحار تتسلط على تفكيره رويداً رويداً ، حتى كانت الليلة التي نحن بصدددها ، ليلة الذكرى ، إذ حزم أمره على وضع حد لذلك الجحيم المستمر ، فخرج ، وترك قدميه تقودانه إلى تلك الغرفة ، في ذلك (البنسيون) النائي ، على ذلك الفراش اللين ، حيث اعترم أن يرقد ... الرقدة الأخيرة ...

مد يده إلى جيبه ، وأخرج ألبوبة دواء منوم ، وتأمل الأقراص البيضاء برهة في ضوء الفجر الباهت الذي كان ينساب من النافذة ... لم يكن عليه سوى أن يسقطها الواحد تلو الآخر في قدح من الماء ، ويشرب ، فينتهي كل شيء ، بسرعة وبساطة ... قام وتوجه إلى إماء الماء ، فلم يبالك ، رغم تشتت ذهنه ، أن تراجع اثمنزازاً ، إذ وجد الماء آسناً ،

أن أدمن عليها وأخذت هي تحطم أعصابه شيئاً فشيئاً وبالرغم من ذلك ، فقد تمكن من إدارة عيادته الناجحة لبضعة شهور ، حيث انغمس في عمله بحماسة أفلقت مساعده وصديقه أمين أو « بمبو » كما كان يدعوهم إعزازاً ، فكان هذا الأخير بنصحه برفق قائلاً — لن تستطيع الدائمة على هذا المجهود الجنوني

يا ابراهيم ... رفقاً بنفسك !
فكان يجيبه متنهداً :

— وماذا أقمل إذا كنت لا أكف عن التفكير في ... في نفسي ... إلا عندما أنهك في عمليتي !
وسدق حدس بمبو ، إذ لم يلبث ابراهيم أن لاحظ أن يده بدأت تفقد شيئاً من خفتها ، وأصبح يشعر بشيء من الرهبة أمام العمليات الصعبة ... بل بلغ به الحال أن كان يشعر أحياناً برعشة تملك جسده ، فكان مساعده المخلص عندئذ يتناول الموضع من يده في رفق ايستأنف العملية ...

وحدث ذات يوم أن اعتراه دوار شديد ، فحمله مساعده إلى خارج الغرفة ، وعندها فهم أن كل شيء قد انتهى بالنسبة إليه ، ولم يفتأ يكرر :

— لقد انتهى كل شيء ... إنني رجل مفروغ منه ! ...

لبث بعدها يأتي كل يوم إلى العيادة كما دته ويرتدي معطفه الأبيض ، ثم يتجه إلى غرفة العمليات ولكنه لا يلبث أن ينكص على عقبيه دون أن يجزؤ على الدخول .

ولما استحال عليه مزاوله مهنته ، حاول أن يجد بعض السلوى في السفر والتجوال . فوقف في الأقصر يتأمل عظمة آثارها ، وجلس إلى صخور شاطى

بجاء شبحاً منتصباً في وسط الطريق يلوح له بذراعه، فضغط على (الفرامل) بسرعة البرق، فكان ذلك في الوقت المناسب، إذ دارت السيارة حول نفسها بعنف، وكادت تودي بالرجل، ثم توقفت أخيراً على حافة الطريق، فسارع القروي إليها — ماذا تريد؟ ...

— أرجو المذرة يا سيدي البك، ولكني سمعت صوت المحرك من بعيد، فلوحت لك، آملاً أن تسمح سماعتك بنقلني إلى المدينة المجاورة كي أستدعي الطبيب. إن طفلي يا سعادة البك في أشد حالات المرض... على وشك الاختناق... وقد قالت سيدتي ابنة صاحب العزبة التي سارعت إلى نجدتنا حفظها الله، إن حالته خطيرة جداً...

ظل إبراهيم صامتاً برهة، يتمتع حواسه بذلك السكون الشامل، الذي كان له أطيّب التأثير في أعصابه المتوترة بعد ضجيج السيارة المزعج، وشرم يذم المصباح الهادي. يربط حرارة جبينه المحموم، فلا رنقيه بلذّة، ثم التفّت إلى محدته

— لقد سمعتك تقول إن طفلك على وشك الاختناق، هل تعني بهذا أنه يتنفس بصعوبة؟ ... — نعم يا سيدي... إن زحيره يسمع من خارج المنزل...

— هل يعلو وجهه شيء من الزرقة؟

— نعم يا سيدي... كانت خفيفة في مبدأ

الأمر، ثم أخذت تشتد فتامة بمرور الوقت

فصمت إبراهيم برهة أخرى مفكراً، بينما انبثق

نور الفجر على الحقول من الشرق، خفاء صياح بعض الديكة

— وأين منزلك هذا؟

يعلمه ريم قنبر، فتلفت حوله، وبدا له ما لم يكن قد لاحظته من قبل، من قدارة الغرفة وحفارتها، فاندفع هابطاً الدرج، وخرج مسرعاً لا يلبى على شيء، حتى صادف موقفاً لسيارات التاكسي، استغل إحداها إلى منزله

كان قد عدل عن فكرة الأقراص النومة، وأخذ يفكر في سيارته الخاصة، سيارة ممتازة سريعة كان قد اشتراها أثناء إحدى محاولاته اليائسة في سبيل النسيان ولم يلبث أن تركها جانباً...

حياء البواب عند وصوله إلى المنزل

— صباح الخير يا سيدي... لقد استيقظت سماعتك مبكراً اليوم

— نعم يا عثمان... إذ جاءني نداء مستعجل

وبعد لحظات انطلق بالسيارة القوية يتسهم للفكرة الجديدة التي تغتق عنها ذهنه... منحني حاد في طريق زراعي، انحراف في القيادة، ثم ارتطام بشجرة... ولن يشك أحد في الأمر، ولن يلحق باسمه أي عار...

اجتازت السيارة حدود القاهرة، وانسابت في طريق زراعي يمتد بين الحقول النبسطة تحت ضباب الفجر الخفيف، تدوى آلتها في طنين خفيف، وقد جلس هو إلى محلة القيادة شارد النظرات، ولكنه كان كلما واجه المنحنى المنشود، قامت يدها وقدماه تحت تأثير الفرزة بالحركات اللازمة لتفادي الكارثة. كان يريد أن يتمتع نفسه بلذّة القيادة السريعة بعض الوقت قبل أن يعجل بالنهاية

مر بوضع قري، ثم بمدينة، لملها بنها، لم يكن يدري، ما زالت جميعها نائمة وهو في سرعته الجنونية والوادي متبسط أمامه، متشابه المناظر، عندما لمح

— هناك يا سيدى البك ، وراء تلك الأشجار
في غربة توفيق بك رضا ، إذ أننى شيخ خفرائه
— إننى طيب ، فقدنى إليه ...

فعبرا الطريق مسرعين ، والفلاح يتهل في سره
حتى وصلا إلى المنزل ، حيث وجد الدكتور ابراهيم
امرأة جالسة وعلى ذراعيها طفل صغير تغطيه ملاءة
بيضاء ، فاتجه نحوها مباشرة ، وانحنى بفحص
الوجه المحتقن ، ثم من رأسه بياس ... كان الطفل
قد بدأ يخرج

— دفتريا يا دكتور ... أليس كذلك ؟ ...
— بلى ... وفي المرحلة الأخيرة أيضا ...
— لقد تبينت ذلك لأول وهلة ولذا أرسلت
الرجل لاستدعاء الطبيب ... وكم أحسنت صنعا
بالإسراع في المجيء يا دكتور ...

وعندها فقط انبه ابراهيم إلى ذلك الصوت
اللائكى الذى كان يخاطبه ، لقد ذكره بصوت
آخر ... صوت عزيز لديه ... ألفه منذ صباه ...
فرفع رأسه بحدة ونظر إلى مصدره ... يا لله ...
لقد ظن نفسه في حلم ...

رأى في ضوء مصباح البترول الخافت شابة :
ابنة توفيق بك التى تحدث عنها القروى بدون شك
واقفة بجانب الأم ، كلاك الرحمة ، وقد شممت عن
ذراعيها حتى المرققين ، ترندى ثوبا بسيطا تغطيه
فوطه بيضاء ، ولكن وجهها ... ذلك الوجه
الصباح ... وتلك الميتين الحاليتين ... وذلك
السمو الرومى ... كان التشابه مذهشا حقا ...
وعادت الذكرى الرهية تعصف بنفس ابراهيم
فضم قبضتيه في عنف ، حتى يتمكن من السيطرة

على أعصابه النائرة ووقف ارتجاف يديه ، ثم قال :
— هل لى أن أسأل ماذا كنت تفعلين
يا آنسة في تلك الملابس ؟ ...

— أوه ... كنت أحاول أن أضغط الأغشية
التورمة بالحقن بعيدا بعضها عن بعض حتى تأتى
النجدة ، لأن الطفل كان على وشك الموت (ثم ابتسمت
عند ما رآته يفرقاه ، واستطردت ببساطة) إننى
طالبة طب ، وقد أتيت هنا لأقضى الشطر الأخير
من إجازة الميسد في الغربة ... هل هناك أمل
يا دكتور ؟ ...

— لن ينقذ المسكين سوى عملية جراحية
سريعة ...

ثم كرر لنفسه فى ياس ... نعم ... عملية
جراحية سريعة .. وتأمل يديه المهترئين بقلق ،
ثم جال بصره بين الأب الصامت المتجلد ، والأم
الواهة ، وتوقف برهة أمام النداء المتبعت من عينيها
المتوسلتين ، ثم تأمل الفتاة الباسمة أمامه ، واستقرت
عيناها أخيرا على الوجه المحتقن الداكن ، وشعر
بالخجل من نفسه ، وذهب عنه كل تردد ، فأسرع
يمدو إلى السيارة ، حيث وجد حقيبة الأدوات التى
تمود أن يتركها فيها دائما ، وعند ما عاد وجد الفتاة
وقد بسطت فوطتها فوق منضدة بالفرقة ، مددت
عليها الربض الصغير ، ثم ساد الغرفة صمت رهيب
كانت أنامل ابراهيم تعمل أثناءه بمهارة فى خلق
الطفل ، ففتحت وسط الأغشية التورمة التى كانت
تسده منفذاً أدخل فيه أنبوبة الطاط ، فنفذ الهواء
إلى الرئتين

ولما حملا الطفل أخيراً إلى فراشه ، ومالا فوقه

— كم أنا سعيدة يا دكتور ... سعيدة لأنك
أنقذت حياة ذلك الطفل المسكين ... ولأن الصباح
مشرق باسم ... تأمل تلك الخضرة كم هي فتانة !!
إن الطيبة يا دكتور ابراهيم تنفر من الموت ومن
الظلام ...

فابتسم ابراهيم مؤمناً ، ثم استأنفا السير جنباً
إلى جنب حتى وصلا إلى الفيلا ، وفيها كانت تدفع
الباب قالت :

— كم أتمنى مهنة الطب ... وإياها من
سعادة عند ما يتمكن المرء من إنقاذ حياة آخر
كما فعلت أنت فجر اليوم ...

فتأملها ابراهيم للمرة الثانية مبتسماً ، ثم فتح
بابه لينتقم ولكن الثوب كان قد أخذ منه كل ما أخذ ،
ففر لونه وترنح إعيا ، وكاد يسقط لو لم تتداركه
ناهد التي تمكنت بمساعدة أحد الخدم من إسناده
وإدخاله غرفة الضيوف حيث استلقى على الفراش ،
وبينما كانت ناهد تبسط النطاء فوقه تناول يدها
الرقيقة في يده ورفع إليها عينيها ونعم بصوت خافت
— ناهد ... ابقى بجانبى ... دائماً أبداً ...
واسهرى على ...

لم تكن ناهد تعرف عن هذا الغريب سوى
أنه تمس شتى ... وأنه بحاجة إليها ... وأنها ...
تهواه ، ولكن بحسبها ذلك ، فلم تسحب يدها ،
بل رقرقت دموعاً في عينيها الصافيتين ، وصرت يدها
الأخرى على جبينه الملهب بينما راح هو لأول مرة
منذ أمد طويل في سبات عميق لم تتخلله الرؤيا المزعجة

محمد محمود اللبني
(٥)

بمستان ، سيما نفسه ينظم ، وسرعان ما استغرق
في نوم هادئ عميق ، فتقابلت عيناها في صمت

غسل ابراهيم يديه بالمطهر ، ثم أخذ يصفف
أدوائه في الحقبة متأهباً للرحيل ، بينما كان يفكر
في تصاريف القدر المعجبية ... خرج لينهى حياته
فتفود. قدماه إلى حيث ينزع حياة من برائن الموت
— مستحيل أن أدعك ترحل هكذا يا دكتور
— ابراهيم ... ابراهيم كامل ...

— تشرفنا ... إسمي ناهد ... ناهد رضا ...
كنت أقول إنه من المحال أن أدعك ترحل هكذا
يا دكتور ابراهيم ... إن الفيلا لا تبعد عن هنا سوى
مسيرة خمس دقائق فيجب أن تأتي متى لتصيب قسطاً
من الراحة إذ أنك تبدو متعباً للغاية ...

نعم ... كان متعباً للغاية لدرجة أنه لم يتمكن
حتى من الاعتراض ، فسارت أمامه باسمة لترشده
إلى الطريق ، وفيما كان يتبعها جعل يتأمل مشيتها
الرشيقة وقوامها المستقيم وشعرها الفاحم الجميل ،
وينصت إلى الأنشودة التي كانت تترنم بها في صوت
خافت ، واختلجه شعور غريب لذيذ ، شعور بأن
شمس ذلك اليوم قد حملت إليه مع أشعتها الدافئة
الحل المنشود ، وأن مشكلة حياته قد انحلت عقدها
وأنه استيقظ من كابوس طويل مزعج ، فساد
روحاً هادئة غريب لم يشعر به منذ أربعة وعشرين
شهراً ...

توقفت ناهد عند أحد المنحنيات فوسع ابراهيم
من خطواته حتى لحق بها ، فقالت :